نحو التربية الفنية

هـــذا أستاذ

للأستاذ عزيز أحمـــد فهمى

— هل تستطيعين أن تساعدينى على ترشيح صاحب ديوان (الجداول) ليكون أستاذاً فى كلية الآداب ؟

— ما ديوان الجداول هذا ، ومن صاحبه ، وأين هو ، وما الذى يميزه عن غيره حتى تطلب له أن يكون أستاذاً فى كلية الآداب عندنا ، وأنت تعرف أن للأستاذية فيها شروطاً ، منها ، أن يكون الأستاذ حاصلاً على الدكتوراه ؟

— ديوان الجداول هو مجموعة من شعر إيليا أبى ماضى ،

والتذكرى ، ولو سقطت هذه الكلمة من الشعر لسقط كل الشعر ولسقط معه رأينا فى العوامل التى عملت فى شعر « على طه » بعد رحلته إلى أوربا، لو قال: (من مصر) وسكت، أو أتى بذلك الحشو الذى لا معنى له، والذى يكثر فى شعر الضعفاء، لانسلخ عن الشعر إلى سؤال يتلقاه المرء من فضولى قائم على طريق السابلة ، وجواب استخرجه الفضول والأجاجة ... ثم هى بعد ذلك التفات يخيل لك معه أن الشاعر قد رد فقال : من مصر ، ثم انتقل بوجهه إلى مصر ، وتلقى دمعة يموّهها بيده ويمسح أثرها بمنديله — فى هذا الجو المرح العابث اللاهى — وهو يقول : (غريب ههنا)

هذا ... وقد أخذت هذا الموضع وحده من القطعة لشهرتها الآن وليتدبر من يسمعها فإن فيها من أمثال ذلك كثير ، مما هو دليل الشاعرية الناضجة التى لا تخطئ معانيها . ولو أخذت سائر شعره على هذا الأساس الذى كشفنا لك عنه فى حديثنا عن الشعر لوقفت على روائعه التى هى روائعه

محمود محمد شاكر

وهو به يستحق أن يكون أستاذاً فى كلية الآداب ، أما الدكتوراه فشهادة يمنحها القارئون الكبار للقارئين الصغار، ولكن إيليا أبا ماضى لم يعد قارئاً، ولا كاتباً، وإنما هو إنسان ينفذ من هذا الوجود المحسوس إلى ما بعده ، ثم يعود إلى الناس يروى لهم ما رأى وما سمع وما أحس وما أدرك ... وهو من كثرة تجواله فى آفاق الكون ألم بالكثير من دروبه ، وأحاط بالكثير من طرقه ، فهو يستطيع أن يكون رائداً لجماهير من التلاميذ تتبعه ، يرشد منهم من يسترشد ، ويوجه منهم من يحار ، ويعلم منهم من يرتبك ، ويهدى منهم من يضل ... وهذا هو عمل الأستاذ . أستاذ الأدب

— هذا عمل الفارغ من حياته المستغنى عن عمره وليس عمل أستاذ الآداب

— ولن يكون الإنسان أستاذاً للآداب إلا إذا فرغ من حياته واستغنى عن عمره ، واشترى بهذه الدنيا شيئاً آخر ، هو الأدب . والأدب ليس كما تحسبين كلاماً منمقاً مزوقاً لبعض الناس قدرة على تخليقه ، والبعض الآخر عاجزون عنه ، وإنما الأدب تربية نفسية يجاهد اليتيم فى تقويم نفسه بها ، وغير اليتيم يسعد بما يربيه عليه أبوه أو أستاذه . واليتامى مساكين ، قليلاً ما يوفقون إلى الهدى وكثيراً ما يفلت زمام أنفسهم من أيديهم فينطلقون فى الحياة ونفوسهم مشردة معربدة تتقمص فى الرذيلة حيناً ، وتتخبط أحياناً بين الرذائل والفضائل، ولكنها لا تستقر على فضيلة إلا ما فرضه عليها مجتمع اليتامى المشردين الذين يحيطون بها ، وليس يفرض هذا المجتمع كثيراً من الفضائل ، فهو كمجتمعات المشردين والمشبوهين من اليتامى والمساكين الذين تريهم ملقين فى الشوارع ...

— وهل فرغ إيليا أبو ماضى من حياته حقاً وتوفر على تأديب نفسه ، فهو إذن قادر على أن يؤدب غيره ؟ وإذا كان قد فرغ من حياته حقاً فمن أين يأكل ... وكيف يعيش ؟

— إنه يأكل كما تأكل الطير فى السماء ، ويعيش كما يعيش الحر الكريم ؛ منذ سنوات وسنوات هبط مصر وأراد أن يستقر فيها ، فاتخذ لنفسه محلاً يبيع فيه السجاير والدخان ووقع عليه

أنطون الجميل بك فرآه يكتب شعراً فى الدكان، فقرأ شعره فأعجبه فنشره فى مجلة كان يصدرها ، فقامت قيامة الأدباء والشعراء المصريين عليـه فأوسعوه نقداً ، وأوسعوه تجريحاً ، وتناولوا ألفاظه ولغته وراحوا يناقشونه فى هذه الفاء ما موقعها من الإعراب، وهذه النون لماذا هى مفتوحة وهى فى الأصل مضمومة ، وهذه الهمزة ، لماذا قطعها وهى همزة وصل ؟ وتكاثروا عليه ، وكان فى مصر إذ ذاك أمير للشعراء هو المرحوم أحمد شوقى بك، وكان رحمه الله يستطيع أن يقول كلمة ينقذ بها إيليا من بين براثن هؤلاء الذين ينقدون الشعر بغير ما يصلح نقداً للشعر ، وكان رحمه الله يستطيع أن يقول لهؤلاء النقاد : إنى أربأ بالشعر أن يعيبه هذا الذى تروون مما يعيب اللغة والعروض والنحو وسائر ما يحصل بالقراءة والدرس ، وإنى أرفع الشعر فوق هذا كله ، فهو حديث النفس والنفس من الله وليس لله لسان مما ننطق به . كان شوقى بك رحمه الله يستطيع أن يقف من إيليا هذه الوقفة ولكنه — رحمه الله — كان مشغولاً بشعره هو وبنفسه هو ، وبالملك العريض الذى أرسله فيه الزمن ، فلم يشعر مطلقاً بالذى حدث لأبى ماضى ، ولم يطق أبو ماضى صبراً على هؤلاء الهاجمين فشد رحاله إلى أمريكا ، حيث يتكلم الناس بالإنجليزية ، وحيث لا عرب إلا الباحثون عن الرزق ، والخارجون من أوطانهم وأيديهم صفر ، ثم استطاعوا هناك فى أشد معامع الحياة ازدحاماً واصطراعاً أن يجمعوا المال وأن يعيشوا به كراما ، لا ذل يرهقهم إلا الغربة ولا مستعبد يزجرهم عن الأرض ؛ وإنما لكل امرىء هناك ما سعى ، ولقد سعى أبو ماضى فأنشأ هناك مجلة اسمها المسمر ويقولون : إنه أنشأ متجراً للدخان والسجاير أيضاً ؛ وزاح بعـد ذلك يتأمل الدنيا ويرنو إلى الآخرة ، ويقيد على الورق ما يتكشف له من الحقائق ، وما يلمحه من المبهمات ، ويسجل على نفسه بلوغها وقصورها ، وخيرها وشرها ، وهداها وحيرتها أفلا يصلح هذا أستاذاً لأدب النفس ؟ فإن كان لا يصلح ، فمن ذا الذى يصلح ؟ !

— ولكن هذا الذى رويته من حياته يدل على أنه من رجال الدنيا المغامرين الذين يجرون وراء الرزق والمـادة من آسيا إلى أفريقا إلى أمريكا فكيف تقول إن هذا رجل ترخ من الحياة واستغنى عن مادتها ؟

— البلبل يطير من فنن إلى فنن يتلقط رزقه ، ولكنه لا يقضى كل وقته فى البحث عن طعامه ، وإنما يقضى أغلبه فى الشدو والترتيل فهما طبعه وقد اختص بهما ، وليس الأكل من طبعه إلا كما هو من طبع الخلائق ، وليس الشدو والترتيل من خصائص غيره إلا من كان على طرازه من الخلائق . فأبو ماضى لم يجد رزقه فى الشام فطار إلى مصر ، فوجد فيها الرزق مقدوراً عليه فطار إلى أمريكا، فوجد فيها رزقاً مباحاً طاهراً قد يكون كثيراً وقد يكون قليلاً ولكنه نقى غير محسود ، فلا عجب إذا اطمأن أبو ماضى هناك — ولكن ثق أنه يحن إلى الشرق، ولعل أغلب حنينه يهتاج إلى مصر فهو يقول :

وطنان أشوق ما أكون إليهما ... مصر التى أحببتهـا وبلادى
ومواطن الأرواح يعظم شأنها ... فى النفس فوق مواطن الأجساد
حرصى على حب الكنانة دونه ... حرص السجين على بقايا الزاد
بلد الجمال خفيـــه وجليه ... وانقن من مستطرف وتلاد
عرضت مواكبها الشعوب فلم أجد
إلا بمصر نضـــارة الآباد ...

— ولكن هذا شعر يسير المعنى قريب اللفظ ... أليس له شعر أحلى ؟

— له ... له كل هذا الديوان الذى فى يدى ، وله غيره ... وبارك الله لصاحب الرسالة الذى ينشر فيها بين الحين والحين شيئاً من شعره ، وكم أريد أن أقول أيضاً بارك الله لوزارة المعارف لو أنها عطفت على تلاميذها وطلابها ويسرت لهم شيئاً من هذا الشعر

— ولكنه لا يزال حياً يرزق ، والدولة لا تخلد إلا من فارق الحياة . . .

— فأل الله ولا فألك ، فوزارة المعارف تخلد كلام الأستاذ الجارم الموظف بوزارة المعارف ، ووزارة المعارف تخلد كلام الأستاذ أحمد أمين عضو لجان وزارة المعارف ، ووزارة المعارف تخلد كلام الدكتور طه حسين بك مراقب الثقافة بوزارة المعارف ، ووزارة المعارف تكاد لا تلتفت إلا لمن كان فى وزارة المعارف، منذ حسنين باشا

صاحب كتاب الطبيعة ، وعبد الفتاح صبرى باشا ، وكل ما فى الأمر أن الصور تتبدل وتتغير ، وأن الكلام يتلون ويتشكل ، ولكن الأمر لا يزال كما كان : موظفون يؤلفون كتباً . ثم يؤلفون لجاناً . فتقرر اللجان الكتب ...

— إخسأ . لا تقل عن هؤلاء الأساتذة الأجلاء إنهم أصحاب أهواء ولا مطامع فهم الأدباء الذين فى البلد ، وهم الشعراء وهم الكتاب ، فإذا لم تأخذ الوزارة كتبهم فأى الكتب تأخذ ؟

— إن أساتذتنا هؤلاء هم أساتذة الجامعة ، فأحرى بهم أن يوفروا أنفسهم للعلم ؛ لأنهم على العكس من إيليا أبى ماضى . . . هو يتاجر فى الدخان ليأكل منه وليفرغ للأدب لايذل نفسه ، وهم يتاجرون بالأدب ليأكلوا منه لا يعتزون بأنفسهم ، ولا يشكرون الله على ما يسر لهم من وظائف ...

— ثق أنك مخطئ ، وثق أنهم أرفع نفساً مما تحسب ، وثق أنهم يتجشمون فى سبيل تثقيف البلد ما أسأل الله أن يجزيهم عنه خيراً ...

— آمين ... إسمع أبا ماضى يصف الشاعر :

أتقولون إنه مجنون
أتقولون إنه مفتون
أتقولون شاعر مسكين
كم مليك كم قائد كم وزير ود لو كان شاعراً مسكينا
عاش ملتن فلم يكن مذكورا
وهوميروس كالشيخ كان ضريرا
ولقد مات إبن برد فقيرا
أرأيتم كما رأى العميان أفلستم بنوركم تهتدونا ؟

— هل هو زاهد ؟

— نعم ، وهو يقول فى الزهد :

قيل : أدرى الناس بالأسرار سكان الصوامع
قلت : إن صح الذى قالوا ، فإن السر شائع
عجباً ! كيف ترى الشمس عيون فى براقع
والتى لم تتبرقع لا تراها ؟ ...

لست أدرى ...

— إذن فهو يسخر من الزاهدين ...

— إنه لايسخر من شىء مطلقاً وإنما هو متطلع إلى الوجود يتعلم الحكمة فكلما تعلم حكمة تفتقت له من ورائها حكمة ، فهو لا يزال كلما تعلم علماً تبين له فى نفسه جهل حتى يقول :

إننى جئت وأمضى ، وأنا لا أعلم
أنا لغز ، وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لاتجادل ... ذوالحجى من قال إنى ...
لست أدرى ...

— لعله كافر ...

— الكافر لا يقول للناس :

لو دخلتم هيا كل الإلهام
وسرحتم فى عالم الأحلام
واجتليتم سر الخيال السامى
وعرفتم كما عرفنا الله لخررتم أمامنا ساجدينا

— إذن فهو مؤمن ...

— ومسلم فى مسيحيته ، لو عرفته لوافقتنى على ترشيحه للأستاذية فى كلية الآداب بعلم طلابها الإيمان والحكمة شعراً ، ويؤدب نفوسهم أدباً ، فإذا تعذر هذا أو صعب فلا أقل من أن يعرض على التلاميذ ديوانه .

عزيز أحمد فهمى

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

وهو معجزة أبى العلاء المعرى فى النثر

لم يبق منه إلا نسخ محدودة

فاطلب نسختك قبل نفادها

يباع فى ادارة الرسالة وثمنه ٣٠